الفصل الثاني

الغزو الثقافي

الفلسفات المادية

● يقول «ولْ ديورانت» : «كانت أوربا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضري ، وللتكلف والافتعال ، والرذيلة»[1]. وكان ذلك بمثابة ردة عن المسيحية ، وانصياعاً للفلسفات المادية التي لا تؤمن بالله ، ولا تعترف برسول أو كتاب منزل . ثم حملت أوربا هذه التوجهات إلى البلاد والشعوب التي ابتليت باستعمارها .

- وقد أشرنا في الفصل السابق إلى التنصير والاستشراق اللذين وَجَدا الحماية والدعم من جنود الاحتلال ، ومن بعض الحكام . وبعد مثابرة طويلة الأمد ، استطاعوا نشر الفلسفات المادية بين أبناء المسلمين ، وتبلور «الهجين» الثقافي الذي يتركب من عناصر إسلامية وأفكار مادية متضادة معها ، حتى أصبح سمة أساسية للمجتمعات المسلمة .

● وعندما تأسست الكليات والجامعات الحديثة في العالم الإسلامي ، دَرَّس فيها أساتذة أوربيون وأمريكيون ، ووضعوا مناهج الفلسفة المادية ، حتى اعتقد بعض الطلاب أن الفكر الأوربي هو الفكر الوحيد ، الذي يستحق هذا الاسم ، وأنه لا فكر سواه [2]. وفي المقابل أخذوا ينظرون إلى الفكر الإسلامي على أنه فكر قديم ، عفى عليه الزمن ، ولم يعد يصلح للحياة ، ونعتوه بالماضوية والتحجر .

---

(١) ولْ ديورانت ؛ قصة الحضارة ؛ الإسلام والشرق السلافي ؛ ترجمة فؤاد أندراوس ؛ نشر مكتبة الأسرة ؛ المجلد ٢١ ؛ ص ٢٦٧ .

(٢) دكتور زكي نجيب محمود ؛ تجديد الفكر العربي ؛ دار الشروق ؛ ط ٥ سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م؛ ص ٥

● وفي المجال السياسي والاقتصادي ، انتشرت النظم الرأسمالية ، الليبرالية ، على أسس مادية في معظم بلاد المسلمين . وفي منتصف القرن العشرين وقعت الانقلابات العسكرية ضد الليبرالية ، وتبنت الأفكار الاشتراكية والشيوعية . وتكونت الأحزاب التي تعتنق تلك المذاهب وتحشد الرأي العام لتأييدها .

وهكذا خَيَّم على معظم الشعوب المسلمة مناخ مادي معتم ، ومسيطر ، وخَفُت الصوت الإسلامي ، وإن بقي الإسلام عميقاً في الضمائر .

● ولم يقف الغزو الثقافي المادي عند حدود النخب السياسية والثقافية ، وإنما امتد إلى الطبقة الوسطى ، فأخذت تحاكي الغربيين في الطعام والشراب والمسكن والأثاث ، وتلهث لتعلم اللغات الأجنبية ، وتفخر بالنطق الدقيق لألفاظها ، ولا يستحي أحدهم من الخلط بين الفاعل والمفعول في العربية !

- وهُجرت الأسماء العربية لتحل محلها الأسماء الأجنبية ، على واجهات المحلات والشركات والمصانع والمدارس والفنادق والمصارف والنوادي . وفي مصر صدر قانون يحتم كتابة اسم المحل بالعربية أولاً ، وتحته الاسم بالحروف اللاتينية . لكن السلطات لم تؤاخذ المخالفين ، فانقلب الوضع الآن بأن كتبت الأسماء بالحروف اللاتينية وحدها!

- والشيء نفسه حدث للبضائع المعروضة في الأسواق من أصناف الطعام والشراب واللباس والأثاث والزينة ، فالغالبية العظمى تحمل أسماء أجنبية ، على الرغم من أنها من المنتجات المحلية .

- وحرص التعليم الرسمي على نشر اللغات الأجنبية عن طريق المدارس الرسمية والخاصة ، الوطنية والأجنبية .

● لكن المعجزة الإسلامية كانت تنتظر الجميع . ففي هذا المناخ المادي ، المتغرب ، انبثقت الصحوة الإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين . وضاقت المساجد بالمصلين يوم الجمعة وفاضت على الشوارع والساحات المجاورة .

وراجت سوق الكتب الإسلامية ، حتى عرفت البوادي والنجوع النائية مؤلفات الغزالي وابن القيم وابن حزم . وعادت أعداد هائلة من النساء إلى ارتداء الخمار أو الحجاب ، الأمر الذي أقلق الماديين في الخارج ، لدرجة أنهم فَصَلوا الطالبات المحجبات من المدارس ، ولجأت فرنسا إلى سنّ قانون يحرم ارتداء الحجاب في مدارسها الرسمية . وعزفت الجماهير المسلمة عن التعامل مع المصارف الربوية ؛ فنشأت المصارف الإسلامية وازدهرت .

● وهكذا اشتد التصادم بين الشعوب المسلمة وبين الفئات المادية المتغربة ، أو بعبارة أخرى بين المركبات المتضادة «للهجين» السائد .

وفي معظم نواحي الحياة يقابلنا هذا التضاد . مثال ذلك الدستور المصري . فهو ينص على أن : «الإسلام دين الدولة»[1]. ولكنه ينص أيضاً على أن : «الشعب يسيطر على كل أدوات الإنتاج»[2]. وهذا مبدأ شيوعي مادي معروف .

-واضطرت النظم العلمانية التي تؤمن بالثقافة المادية إلى كبت الحريات العامة، فجندت الأجهزة العديدة لإحباط أية حركة شعبية . وَأهْدِرَت أموالٌ باهظة على تلك الأجهزة ، على حساب الزراعة والصناعة والتعليم والتنمية . واضطرت النظم الحاكمة إلى الاقتراض من الخارج ، وأدمنت ذلك . ورحب الأوربيون والأمريكيون بإقراض المقترضين ، لأن ذلك هو السبيل إلى الهيمنة . ومع مرور الزمن ، تضاعفت أرقام الديون ، وفوائدها ، وانعكس ذلك كله على اقتصاد البلاد وحرية اتخاذها لقرارها ؛ وجاء عصر التبعية بعد ذلك .

● ومع ذيوع الفلسفة المادية في مجالات السياسة والاقتصاد ، صارت المعايير المادية هي التي يُحتكم إليها في تقرير الصواب والخطأ ، والجمال والقبح ، والمفيد والضار ، والمعروف والمنكر والتقدم والتأخر . وصار السفير الأمريكي يعترض على بعض ما تنشره الصحف من المقالات والتحقيقات . بل إن بعض الخطب المنبرية تعرضت لنقد السفير الأمريكي في بعض البلاد الإسلامية .

---

(١) انظر : الباب الأول من الدستور المصري الصادر سنة ١٩٧١ – المادة ٢ .

(٢) نفسه ؛ الفصل الثاني ؛ المادة رقم ٢٤ .

- وامتد نفوذ أمريكا إلى مجال التربية والتعليم ، فأخذت تعترض على تدريس بعض المواد الإسلامية . وأيدها كثير من المعادين للإسلام ، من الماديين من أبناء المسلمين ، فقلّصوا المواد الإسلامية ، وتوسعوا في دراسة التاريخ الوطني القديم والجديد ، ودراسة الفرعونية ، والفينيقية والآشورية ، ليزاحموا الإسلام ، ويضعفوا الولاء له ،وصار رفاعة الطهطاوي أهم من عمر بن عبد العزيز في المناهج الدراسية.

● يعرف المسلمون هذه الحقائق ، ويعرفون أن الإسلام يواجه اليوم فلسفات وأفكاراً ومذاهب معادية عديدة داخلة في «الهجين» الثقافي . وهذا يحتم على الدعاة التصدي لتلك الأفكار المعادية للإسلام ؛ فعمل الداعية : «يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحْسُنَ نباتُه ويكمل ريعُه»[1].

● حقاً لقد واجه الإسلام أعداءً عديدين من الوثنيين والمشركين واليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، لكن المواجهات الحالية مع الإلحاد والمادية والشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والشعوبية ، وحركات الردة : القاديانية والبهائية ، والصهيونية والعلمانية والاستباحة والبراجماتية الأمريكية ، والنسبية السوفسطائية الجديدة ، تجعل المواجهة أشد وأعنف ، خصوصاً في عصر تتسلح فيه القوى المعادية بكل الأسلحة : من تعليم وتربية وإعلام وآداب وفنون ، وتدخل بأجهزتها مخادع المؤمنين لِغوايتهم وتضليلهم وإبعادهم عن دينهم . ولم يتعرض آباؤنا وأجدادنا لمثل هذا الطوفان من العداء والغواية . ولم يواجه سلفنا الصالح من الدعاة العظام على امتداد تاريخنا الإسلامي فلسفات وأفكاراً بهذه الكثرة ، وقد دخلت في قلب فكرنا الراهن ، وشكلت هذا «الهجين» المتنافر الذي يسبب لنا الصدامات والنزاعات ، حتى الحروب الأهلية في بعض بلادنا المسلمة .

---

(١) أبو حامد الغزالي ؛ أيها الولد ؛ تحقيق علي محيي الدين علي القرداغي ؛ نشر دار الاعتصام ، بالقاهرة ؛ ص ١١٢ .

● لقد تغير فكر المخاطبين، وتغيرت أخلاقياتهم ونظم حياتهم تغيرات عميقة. وعلى الدعاة أن يدرسوا هذه التغيرات جيداً، ويطوروا الخطاب الديني، ليواجهوا الدعوات المضادة التي تستخدم مناهج ووسائل متطورة بعيدة التأثير في الناس.

النسبية السوفسطائية : من الغرب إلى بلادنا

● ويصف «فوكوياما» التطورات التي حدثت في الغرب ثم انتقلت إلينا فيقول: إنه حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كانت الأسرة في بريطانيا والولايات المتحدة متماسكة ومنضبطة، وسائدة. وخضع السلوك الجنسي للشباب لقواعد صارمة. غير أن تحولات وتغيرات ثقافية غير ظاهرة أدت إلى تقويض تلك القواعد.

● وسنرى أن هذه التطورات صُدِّرَت إلينا فيما بعد!

- على رأس تلك التحولات الثقافية كان ثمة فلاسفة وعلماء وفنانون يروِّجون لأفكار نظرية مجردة هي التي أفضت إلى التغيرات الواسعة العميقة التالية. وعن طريق الكتب المبسطة والصحف ووسائل الإعلام الأخرى صارت تلك الأفكار النظرية ثقافة شعبية. ثم انتقلت تلك الأفكار إلى التطبيق في عالم الواقع، في سلوك أعداد كبيرة من الناس.

- ويُرجع «فوكوياما» انهيار الأخلاقيات المسيحية الموروثة إلى الفلسفة العقلية في الغرب، فهي التي أنكرت وجود أسس عقلية للمعايير الأخلاقية. وكان «فردريك نيتشه» هو أوضح من عَبَّر عن تلك الفلسفة، فهو الذي تبنى نسبية الأخلاق، وحاول أن يثبت أن الإنسان هو الذي يضع القيم الأخلاقية وهو الذي يُلغيها.

● وشكك «جون دِيوى John Dewey» (١٨٥٩-١٩٥٢) و «وليام جيمس William James» (١٨٤٢-١٩١٠) و «جون واطسُون Watson . J» (١٨٧٨-١٩٥٨) في عقيدة الخطيئة الأولى المسيحية التي تقرر أن الطبيعة البشرية آثمة

بفطرتها . وشككوا أيضاً في كون الضوابط الأخلاقية الصارمة ضرورية لتنظيم المجتمع . وزعمت المدرسة السلوكية في علم النفس أن البشر آثمون ، ولكن بسبب الضغوط الاجتماعية والسياسية ، لا يسبب الخطيئة الأولى . وروَّج «فرويد Sigmund Freud» (١٨٥٦-١٩٣٩) لفكرة أن الكبت الجنسي هو سبب الأمراض العصبية neurosis فانتشرت فكرته انتشاراً واسعاً لدى جيل كامل .

● وفي بداية القرن العشرين ، نتيجة للتطورات الفلسفية السابقة ، انهارت القيم الأخلاقية ، فتصاعدت نسبة احتساء الخمور ، وارتادت النساء المهذبات صالات الرقص ، وظهرت السينما ، وتوطدت الثورة الجنسية ـ أي استباحة الفواحش ـ في الستينيات وسط النخب الأمريكية [١].

● وكانت لهذه التطورات أصداؤها في بعض عواصم العالم الإسلامي ، ويمكن القول إنها انتشرت بالتدرج نفسه الذي سارت عليه في الغرب ، حتى أخذت مكانتها في حياة الناس العاديين . فانتشرت أولاً بين النخب الثقافية والسياسية . وحاول عدد من الأكاديميين ترويج النسبية في الأخلاق كما هو الحال عند «نيتشه» . واصْطَنَع عبدالرحمن بدوي ـ الذي كان لا يزال كاتباً مبتدئاً ـ في الأربعينيات من القرن العشرين ، أسلوباً خطابياً زاعقاً في عرض نسبية «نيتشه»[٢]. ثم كتب عنه الدكتور فؤاد زكريا كتاباً .[٣] وكان أحمد أمين وزكي نجيب محمود قد أفْرَدَا له أكثر من خمسين صفحة في كتابهما «قصة الفلسفة الحديثة».[٤] وكتب عنه آخرون في مجلة الرسالة القديمة . واتَّسمت بعض الآراء في «نيتشه» بالغُلو والشذوذ ، فَوَصَفَهُ خليل هنداوي بأنه نبي ، وأن آراءه هي الدواء لأمراض المجتمع العربي![٥] وألفت كتب أخرى وقدمت رسائل جامعية عن «نيتشه» أيضاً .

---

(1) The End of History and the Last Man; Pull . Penguin ,1992 ; The Introduction

(٢) نشرته مكتبة النهضة المصرية (دون تاريخ) لكنه صدر في بداية الأربعينيات من القرن العشرين .

(٣) في كتابه : نيتشه ؛ نشرته دار المعارف بمصر (دون تاريخ) .

(٤) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م

(٥) العددان رقم ١٣٨ ورقم ١٣٩ من مجلة الرسالة القديمة .

● والحق أن آراء «نيتشه» الفلسفية والأخلاقية لا تستحق هذا التقدير . لكن الذين كتبوا عنه كانوا يأملون في إحداث انهيار أخلاقي كالذي حدث في الغرب .

● لقد وجدت نسبية «نيتشه» ـ أولاً ـ رواجاً ملموساً وسط النخبة العلمانية الأكاديمية الضيقة ، ثم هبطت الفكرة إلى الإعلام ، وواظب العلمانيون العرب على الترويج للنسبية الأخلاقية الجذرية التي تعني أن كل شيء يتغير بتغير الزمان . وتبعاً لهذا لابد أن يتغير الإسلام بعقائده وشرائعه ، وأخلاقياته .

● ومع المثابرة في الترويج للنسبية بدأت الفكرة تنتشر بالعدوى من تركيا ومصر والشام وشمال إفريقيا إلى سائر البلاد المسلمة . وبدأت فئات متعلمة تجد صعوبة في قبول الثوابت الإسلامية . وتساءل العلمانيون في خبث : هل نَثْبُت على ظهور الجمال وندع السيارات والطائرات؟!

● وعلى الرغم من سقوط النسبية في الفكر الأوربي الحديث والمعاصر عند عدد من كبار الفلاسفة ـ مثل هُسِّرْل (١٨٥٩-١٩٣٨) وهارتمن (١٨٨٢-١٩٥٠) ـ واصل العلمانيون العرب تضليل الناس بإلحاح لا يفتر على ضرورة التطور والتقدم والحداثة وما بعد الحداثة ، دون أي احترام للحقائق التي تحدد مجالات التطور وتميزها من مجالات الثوابت والمطلقات [1].

● والقضية فلسفية بطبيعتها ، ولذلك يجد الداعية صعوبة في تقريب الفكرة الإسلامية المضادة إلى أفهام كثير من المدعوين .

● والمشكلة تتمثل في المستوى الثقافي للمخاطبين ، لا في مستوى الدعاة . إنهم أشبه ما يكونون بالأطفال الذين يسألون : كيف تطير الطائرات؟ ويعجزون عن فهم الجواب مهما تبسط الخبراء في شرحه .

● وفي النصف الثاني من القرن العشرين اصطدمت حركة التغريب كلها ـ لا النسبية وحدها ـ بالصحوة الإسلامية التي عَمَّت العالم الإسلامي . وانتهى الصدام

---

(١) هذه التوجهات هي موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

بين التغريبيين وبين الإسلاميين إلى تبلور معسكرين متمايزين متنافرين أحدهما إسلامي في مواجهة آخر علماني . وتضخم «الهجين» الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي بعناصره المتضادة المتنافرة ، وتطور في بعض البلاد إلى صدام عنيف ، وتوقف في بعضها الآخر عند حدود المعارضة السياسية والثقافية .

● وهذه التطورات الأخيرة هي التي جعلت مسار التطور في العالم الإسلامي يختلف عنه في الغرب . هناك في الغرب انتهت الفلسفة المادية إلى نبذ الدين ونشر الإلحاد ، وتوكيد النسبية الجذرية الشاملة . وطالبت النساء بالمساواة التامة مع الرجال ، ونُلْنَها . وأسقطت الحُرمة عن الفحشاء ، فانكمش عدد الأسر القانونية والمعتمدة كَنَسياً . وزادت أعداد أبناء السفاح في طَفَرات تجاوزت نصف أعداد المواليد . وأصبحت الجريمة المشكلة رقم واحد على الأجندات الحكومية الأوربية . وصارت المخدرات غذاءً يومياً للملايين من الكبار والصغار . وانتشر «الإيدز» بسبب انفلات الاتصالات الجنسية الحرة (!!) وازدهرت الدعارة حتى أضحت التجارة الثالثة بعد البترول والمخدرات!

تهديم أخلاقيات العفاف والسَّتْر

● ورَشَحَت هذه الكوارث على المسلمين . فالأحاديث الطَّلِيَّة عن التطور لا تنقطع خلال وسائل الإعلام . وكل من يعارضها يوصف بالرجعية والتحجر . وفُرِضَت قضية المرأة علينا فرضاً . وانتشرت الأزياء النسائية الغربية التي تعرِّي الجسد أكثر مما تستر على نطاق واسع في بعض البلاد المسلمة ، وعلى نطاق ضيق في أخرى . وزاد عدد أبناء السفاح بقدر التراخي في احترام تعاليم الإسلام الضابطة لعلاقة الرجال بالنساء . ورَخِّصَ لبعض الساقطات بممارسة الدعارة في بعض العواصم المسلمة .

● وكان من الطبيعي أن تتضاعف هموم الداعية المسلم في مجتمع ابتليت نسبة كبيرة من أفراده بهذه الأمراض العقدية والأخلاقية . وواجه الكتَّاب المسلمون طوفاناً من الروايات والمسرحيات والأفلام والمسلسلات والكتب والمقالات التي تروِّج

للتغريب والمادية والنسبية صراحة أو ضمناً . وهُوجم الدعاة الملتزمون بضراوة ، ولم يجدوا الفرصة للرد أو صَدَّ الهجمات إلا في حالات نادرة .

- والمطرف العلماني دور نشر رسمية تتلقف كتاباته ، وتغدق عليه الأموال ، وليس للدعاة شيء من ذلك . وللعلمانيين مسارح رسمية تنتظر إنتاجهم وتكافئهم ، وليس للإسلاميين نصيب فيها . وهذا هو سبب قلة الإنتاج المسرحي في الوسط الإسلامي . فما جدوى أن يكتب الكاتب إذا كان يعلم سلفاً أن مصير إنتاجه مكان مظلم في خزانة كتبه ؟

● هكذا صار المخاطبون المسلمون في العالم الإسلامي غنيمة مستباحة للفعاليات العلمانية المضادة للدعوة الإسلامية دون منافسة تُذكر . ولا يمكن أن نُسَمِّي خطب الجمعة والأحاديث الدينية الإذاعية منافساً حقيقياً لكل الفعاليات العلمية والفنية والأدبية التي يحتكرها العلمانيون في معظم البلاد المسلمة .

إباحة الاستباحة

● ومَضَى التطور في الغرب في طريقه ، حتى صارت «الثورة الجنسية» التي وقعت في الستينيات وتحدث عنها «فوكوياما» ـ صارت استباحة مباحة permissive cornucopia حسب تعبير «برجنسكي» مستشار الأمن القومي للرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية (كارتر) . وأفرد برجنسكي فصلا كاملاً لشرح أبعاد الاستباحة المباحة في كتابه Out of Control (الانفلات)[1]. فقال إن هذه الاستباحة المباحة جعلت اللذة الحسية هي القيمة العليا التي يسعى كل فرد لبلوغها ، بصرف النظر عن الضوابط الأخلاقية . وهذه الاستباحة هي التي تسلب أمريكا القدرة على امتلاك رسالة تقدمها للعالم ، وهي التي تهدد قبضة أمريكا التي تهيمن بها على العالم ، وتبشر بانفلات المِقود من يدها . واصطبغت الثقافة الأمريكية «بإباحة الاستباحة» ، وعبَّر التلفاز عن تلك الثقافة بالإغراق في الجنس ـ الذي انفلت من عقال القيم ـ وتشجيع المشاهدين على الزنا واللواط

(1) A Robert Stewart Book; New York; 1993; pp . 64-74

والسحاق . وتاجر المنتجون بأجساد النساء ، في المسلسلات والأفلام والإعلانات ، واعتُبرت إباحة الاستباحة هي ثقافة المجتمع الراقي الذي يجب أن يُحتَذى!

● وبهذه الاستباحة لا يمكن أن تكون أمريكا أنموذجاً للعالم ، وهي تلهث وراء الشهوات الجنسية والحسية والمادية ، وتتنكر للدين بوصفه ضلالاً منافياً للعقل!

● وجذور هذه الاستباحة ضاربة في أعماق الفلسفة اليونانية القديمة لدى أفلاطون الذي طالب بأن تكون النساء مشاعاً بين الرجال : ولا ينبغي أن تكون لأي امرئ زوجة خاصة ، كما ينبغي أن يكون الأطفال مشاعاً « بحيث لا يعرف الأب ابنه أو الابن أباه . »[1]

- وفي أوربا في عصر النهضة ، نُبذت المسيحية ، واستبدلت بها الفلسفة اليونانية التي كانت البذور الأولية لإباحة الاستباحة الراهنة .

المساواة التامة بين الرجال والنساء

● ويعبِّر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة في ١٠/١٢/١٩٤٨م عن حصيلة التغيرات التي حدثت في الغرب ، والتي يُراد لها أن تحدث في العالم أجمع وفي العالم الإسلامي ، وهو ما يسمى « العولمة » .

- فالمادة رقم ٦ من ذلك الإعلان تزعم أن الذكر والأنثى : « يتساويان في الحقوق لدى الزواج ، وخلال قيام الزواج ، ولدى انحلاله . » وهكذا تتنافى هذه المادة مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تعطي للرجال حقوقاً خاصة ، وتحملهم مسئوليات خاصة ، قبل الزواج وفي أثنائه ، وعند الطلاق وبعده . فالزوْج يقدم الصداق ، وليس على الزوجة صداق ؛ والزوج يؤثث بيتاً ، وليس على الزوجة تأثيث . والزوج مكلف بالإنفاق على الأسرة ، والزوجة غير مكلفة بذلك . والقوامة للزوج وليس للمرأة قوامة . وهو يملك حق الطلاق ، وهي لا تملكه إلا إذا اشترطت أن تكون العصمة بيدها .

---

(١) جمهورية أفلاطون ؛ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ؛ ك ٥- ف ٤٥٧- ص ١٦٩

- ثم إن الذكر والأنثى يختلفان في الطبيعة الحيوية ذاتها ؛ وهذا هو ما يقرره الخالق جل في عُلاه بقوله ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦) والذكر ليس له رحم ، وهو لا يحيض ، ولا يحمل ولا يلد ؛ وليس له مبيض ؛ والأنثى لها رحم ، ومبيض ، وتحيض وتحمل وتلد ، وترضع . وهذه الاختلافات تحتم اختلاف الواجبات الحياتية للذكور والإناث . وهذا هو ما يشرعه الإسلام ، وما يعتبره الإعلان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٦٧/١١/٧ تمييزاً ضد النساء ، ويطالب في المادة الثانية منه بأن : « تتخذ جميع التدابير لإلغاء القوانين والأعراف والأنظمة والممارسات القائمة التي تشكل تمييزاً ضد المرأة» . وهذا معناه نسخ الشريعة الإسلامية وإحلال هذه الإعلانات محلها .

الرفض الإسلامي لإباحة الدعارة

● ويحرِّم الإعلان السالف الذكر الاتجار بالمرأة باستغلالها في البِغَاء ، لكنه لا يمنع النساء من امتهان الدعارة لحسابهن الخاص (المادة رقم ٨) وهذا تطبيق لـ « إباحة الاستباحة» التي تسود في الغرب اليوم .

- وأكثر من هذا تحظر الاتفاقية الصادرة في ١٩٤٩/١٢/٢ استغلال دعارة الغير ، كما تحظر تسجيل الداعرات أو بيان اشتغالهن في الدعارة في وثائق السفر وإثبات الشخصية ، أو إخضاعهن للكشف الطبي (المادة رقم ٦) وبذلك تُيسر لهن الاختلاط والسفر دون حرج!

- وفي العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية المؤرخ في ١٩٦٦/١٢/١٦ نَصٌّ على أنْ : « تتعهد كل دولة طرف في هذا العهد ، إذا كانت تدابيرها التشريعية القائمة لا تكفل فعلاً إعمال الحقوق المعترف بها في هذا العهد ، بأن تتخذ ـ طبقاً لإجراءاتها الدستورية ولأحكام هذا العهد ـ ما يكون ضرورياً لهذا الإعمال من تدابير تشريعية أو غير تشريعية».

- ومعنى هذا مرة أخرى أن على المسلمين نبذ شريعة الله التي تحرم البغاء وإحلال أحكام هذا الإعلان محلها! وهذا هو المطلوب عند العلمانيين الذين يكتبون تحت عنوان « تطوير الخطاب الديني » لتضليل الأمة .

نجاح وإخفاق

● ونحن نحمد الله تعالى على أن أمتنا رفضت ذلك الإعلان . صحيح أن تغيرات واسعة وعميقة أصابت الكثيرات من نساء المسلمين في فكرهن وسلوكهن ، لكن أحداً لم يجرؤ بعدُ على تطبيق أحكام ذلك الإعلان في أي بلد مسلم . وفي المؤتمرات التي عُقدت في القاهرة ثم في بكين في التسعينيات من القرن الماضي ، أحبطت كل المحاولات لانتزاع قبول المسلمين لما يُطلق عليه « الحرية الجنسية » أو « إباحة الاستباحة » أو استحلال الفواحش والتحلل من القيم ، والمعنى واحد .

● لكن قلة قليلة من النساء المنحدرات من آباء مسلمين والحاملات لأسماء إسلامية ، نبذن الإسلام عقيدة وشريعة ، واعتنقن مذاهب إلحادية ، والتحقن بجمعيات ماسونية وأحزاب علمانية ، وأعلنَّ صراحة الانخلاع من أخلاقيات العفاف والسَّتْر الإسلامية . وانتشرت الأزياء الغربية الخليعة بينهن ، ورضي آباء وأزواج وإخوة بأن تخلو الابنة أو الزوجة أو الأخت بالأجنبي ، وتخرج معه إلى السينما والمسرح والشاطئ والنادي ، وتراقصه وتسهر معه ، وربما شربت الخمر ولعبت القمار . وصارت بعض البيوت المسلمة بيوتاً غربية في نظامها وعاداتها وأخلاقياتها . وانتشر السفور في كثير من عواصم العالم الإسلامي ، بل إن بعض البلاد تحرِّم الحجاب على النساء في بعض الدوائر الرسمية ، وَ تَحْرم المحجبات من حق العمل في بعض الوظائف .

● ومن الجلي أن هذه التغيرات في أوساط النساء المسلمات تشكل مصاعب إضافية أمام الدعاة ، وعلى الرغم من ذلك نجحوا بتوفيق الله تعالى وعونه في استعادة الملايين من النساء إلى مظلة الإسلام . وكان ارتداء النساء للحجاب تعبيراً عن ذلك . ولهذا ثارت القوى العلمانية ضد المحجبات ، ووصف الدكتور زكي

نجيب محمود عودة الحجاب بأنه ردة ! وأخيراً لجأت فرنسا وألمانيا وتركيا إلى تحريم الحجاب ـ في بعض الأماكن ـ بالقانون ! ومع المثابرة والإخلاص في الدعوة نأمل أن تعود النساء المسلمات ، والرجال المسلمون إلى جنة الطاعة لله تعالى ، لكي يفوزوا بجنة الآخرة .

● هذه هي سمات المجتمعات الإسلامية والدولية التي يعمل فيها الدعاة ؛ وهذه هي التوجهات السائدة لدى المخاطبين والتي تجعلهم على الضد من آبائهم وأجدادهم الذين كانوا يتلقون الدعوة منذ عهد النبوة إلى مائتي عام خلت .

● وفي إيجاز نقول إن المخاطبين المسلمين المعاصرين يتعرضون لتأثيرات الفلسفة المادية النسبية الملحدة ، التي تسعى للحلول محل الإسلام ؛ وقد نجحت في تشكيل «هجين» ثقافي قوامه عناصر إسلامية وعناصر علمانية متضادة ، صَبَغَ الحياة الإسلامية بالتنافر والتصادم في معظم المجالات . وكانت النسْبية السوفسطائية النيتشوية أحد العناصر العلمانية الأساسية التي شوهت المناخ الفكري حتى صار من العسير عند كثيرين منا الدفاع عن الثوابت الإسلامية . ولعبت الثورة الجنسية ـ أي استباحة الفواحش ـ دوراً مخرباً في اهتزاز القيم الإسلامية التي تنظم علاقة الرجال بالنساء ، وفي افتعال قضية المرأة التي تُتخذ مدخلاً للتهجم على الإسلام وشريعته!

الآثار الإيجابية للاحتكاك بالغرب

وكان للاحتكاك الكثيف بالغرب آثار إيجابية لا يمكن إنكارها . وقد شكلت الجيوش الحديثة في العالم الإسلامي على أيدي خبراء غربيين ، وبعثت الدول المسلمة أبناءها إلى دول الغرب لتحصيل الفنون الحربية . هذا ما فعله محمد علي في مصر [1] . وما فعله السلاطين العثمانيون ، وشاه إيران ، وغيرهم .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ؛ عصر محمد علي .

ونظم التعليم الحديثة مقتبسة عن الغرب . وقد تولى التدريس في جامعة القاهرة عند بدء عملها أساتذة أجانب ، واستمروا فيها مدة طويلة حتى نشأت أجيال من أساتذة الجامعة الوطنيين . هذا إلى جانب الكليات الأجنبية ومدارس التنصير الحديثة التي أشرنا إليها سلفاً . وانتشرت نظم التعليم المقتبسة عن الغرب في سائر البلاد المسلمة . وكان ذلك سبباً في نهضة علمية وصناعية كبرى ، وفي الوقت نفسه ألحق ضرراً بالغاً بالوحدة الفكرية والثقافية الإسلامية ، حين أدخل الأفكار والفلسفات العلمانية والمادية التي شكلت «الهجين» الثقافي الذي نعاني منه حتى الآن ، والذي يمثل جوهر التغيرات التي طرأت على المدعوين المسلمين .

وعرف المسلمون الطباعة على أيدي الأوربيين . وعرفت تركيا الطباعة سنة ١٧٢٨م ، وعرفتها مصر سنة ١٧٩٨م ، ولبنان سنة ١٦١٠م . وبعد ذلك ظهرت الصحف ، وطبعت المخطوطات التراثية ، ومن ثم قامت النهضة الحديثة . ووقعت تغيرات هائلة في أحوال المدعوين المسلمين .

وعن الأوربيين أخذ المسلمون مئات الأدوات والأجهزة الحديثة ، من السيارة إلى الطائرة ، إلى الهاتف ، إلى «الإنترنت» . ودفع المسلمون ثمن ما أخذوا كاملاً . وكانت بلادنا المسلمة هي الأسواق التي ضمنت الرواج للمصنوعات الأوربية ، والتي زودتها بكثير من المواد الخام للصناعة ، وعلى وجه الخصوص البترول . وكان لهذه المقتبسات آثار بعيدة المدى غيرت وجوه الحياة في عالمنا الإسلامي في المجالات النظرية والعلمية والتقنية والأدبية .

* * *